

مظاهر القرن العشرين



ترجمة وتلخيص بقلم
عائدة مطرجبي

بقلم
اندرية سيفريد

الصناعة قد تطورت حتى تغير وجه العمل ، وتغيرت معها
سيكولوجية الذين يقومون به ، واصبحت الآلة تتمسحس طريقهم
الى اعق حياتنا الصميمة .
فاذا عدنا الى الوراء ، والقينا نظرة عابرة على اساليب
الانتاج في عصورها الغابرة الى يومنا هذا ، رأيناها تمر في ثلاث
مراحل مختلفة : فالمرحلة الاولى تشمل العصر الممتد من احدث

دخلت الآلة حياتنا ، فاذا بشورة صناعية تنفجر ، واذا
بنتائجها تتألق ، فتغير وجه التاريخ ، بالرغم من ان
امكانياتها لم تنته بعد . انها ما تفتأ تتنامى دون ما توقف ، ترى
اي مصير هو ذلك الذي ينتظر العالم بعد مضي خمسمئة عام
او الف من هذه الحياة الميكانيكية المحضة ؟ ان عصرنا بلاريب
يسجل فيجز عصر جديد تتعرف اليه الانسانية . ذلك ان شروط

تقوم فكرة هذا الكتاب الجديد « مظاهر القرن العشرين » Aspects du XXème Siècle الذي وضعه اندرية سيفريد A. Siegfried عضو
الاكاديمية الفرنسية على تصوير تأثير الآلة في القرن العشرين . فان هذه الآلة التي بدأت بالاستئثار بالانتاج الصناعي ، وتغلقت في جميع مراحل
حياتنا ، تجدد الآن تجديداً كلياً طابع الحضارة الاوروبية ، ولا بد لها ان تشمل بعد حين جميع القارات . والواقع ان اثر هذه الآلة واحد في
جميع الميادين ، سواء في ذلك ما يتعلق بادارة الاعمال او بدواوين الكتاب (السكرتيريا) او بالدعاية او بالسفر او بالسرعة او بالجغرافيا
او بالانزلق او بالفن او حتى بالتفكير نفسه : ففي ذلك كله نرى إحلال العمل الجماعي محل الجهد الفردي ، والاستعاضة بالكثرة المددبة عن النوعية ،
واستبدال العزل او حتى العقل بالآلة .

وقد شازكت في هذه الثورة المستمرة قرون ثلاثة : فقد استهلها القرن الثامن عشر (بالرغم من ان السابع عشر قد مهد لها فكرياً) واكسبها
التاسع عشر نمواً الاول في الاطار الاوروي ، ولكن القرن العشرين ، تحت التأثير الاميركي بصورة خاصة ، هو الذي يستخرج منها الآن
وبصورة مكثفة جميع النتائج والواقف . على ان القرن الثامن عشر ، بالتوازي مع خط اليونان والانجيل ، كان قد وكد القيم الانسانية
كأساس للمجتمعات الديموقراطية الغربية . ان الآلة البخارية واعلان حقوق الانسان هما امران معاصران ، ولكن التجربة قد اثبتت انها
يمعلان في اتجاهات مختلفة . فالاولى تقود الى الجماعية ، بينما يطالب الآخر بحقوق الفرد الانساني . ومن هنا نشأ هذا الصراع ، الذي ما انفك
قائماً ، بين مفهوم تقليدي لحضارة ذات ينبوع متوسطي (نسبة للبحر الابيض المتوسط) وتكنيك آلي جديد مستمد من مبادئه قد لا تنسجم مع
إرث الماضي . تلك هي المسألة التي تشغل القرن العشرين والتي بدأنا نراها حين نرى الآلة والكمية تتغلغلان في كل مكان ، حتى في اقدس مقدسات
الفكر . ومظاهر هذا الاكساح وهذا الفزوق كثيرة متنوعة ، يقصد هذا الكتاب الى التحدث عن ابعدها دلالة وأعمقها مغزى ، ويضع القارئ
دائماً امام هذا السؤال : « هل نحن عبيد الآلة ؟ »

واحسب انه يهمننا ، نحن القراء العرب ، ان نطلع على هذا التطور الآلي وآثاره ، احسن منها والرديء (والوديء
هو الغالب) في هذه الفترة التي نستعد فيها لبناء حضارة عربية جديدة ، وان نفيد لتجاربتنا المقبلة من تجارب
سوانا . وهذا ما دفعني الى تقديم هذا الكتاب الهام لقراء « الآداب » .
« ع . م »

فترة من فترات العصر الحجري حتى القرن الثامن عشر . انه عصر ما قبل الصناعة . وقد كان الانتاج في هذه الآونة محدوداً ، اذ ان العمل كان يقاس بالنسبة الى قوة الانسان الجسدية او بعض الحيوانات الداجنة او القوى الطبيعية البسيطة كالهواء والسيول . ومع هذا كله فلقد حققت الانسانية عجائب يوم فكرت ان تجمع الفن والمنفعة .

وما يزال العصر يتقدم والانسان يتطور بسرعة هائلة حتى يضي النصف الاول من القرن الثامن عشر فيبزع فجر عصر جديد ، عصر برزت فيه آلة « وات » Watt البخارية ، واذ ذلك لم تعد قوى الانسان الجسدية هي التي تقوم بالعمل بل قوى الطبيعة التي لا حدود لها ، واذا المعامل تنتشر فتحل محل العامل اليدوي العامل الآلي ، واذا بالمهندس يغدو والعنصر الاساسي الفعال ثم يأخذ العمل يفرض بطبيعته لأول مرة التضامن الجماعي والنتاج بالجملة فيؤدي هذا التضامن الى ظاهرتين جديدتين اخذتا تقويان شيئاً فشيئاً لتمييزهما بعد عصرنا هذا : ظاهرة « تعقيد » العمل Standardisation وظاهرة الجماعية Collectivisme . انهما قد تسالمتا ثم فرضتا نفسها على جميع نواحي الحياة : في الصناعة والتجارة والزراعة وحتى في الطب وفي التعليم ، وقد اصبحت الآلة مدعوة الى ان تفكر واصبح الانسان مدعواً معها الى ان يفكر آلياً .

ثم كان القرن العشرين ، عصر « الادارة » Age administratif فغير هذا جوهر الصناعة نفسها . لقد اراحت الآلة العامل من كل عمل يدوي شاق كما اراحت المعامل منه . وكان لابد من ظاهرة جديدة تتضح : لقد اعتمد العمل على الآلة فاستغنى عن الايدي العاملة التكنيكية . ولكنه استعاض عنها بموظفين جدد تفرضهم طبيعة العمل نفسه الذي يتطلب قبل كل شيء من هيئته ومن ينفذه ومن يراقبه . فالآلة في هذه الحالة لم تقض على كل تقدم انساني : فان التهيئة تتطلب مجهداً فكرياً لا يتنكر له من وقف على تقدم الآلة نفسها ، كما ان المراقبة تفرض المحاسبة ، اي انها تفرض حضور الفكر اليقظ المنظم : فادنى اهمال يؤدي الى افساد العمل بكامله . ولم يبق آلياً محضاً الا ناحية التنفيذ تقوم بها الآلة كلما تقدم بها العهد .

وهناك ظاهرة اخرى لا يمكن تجاهلها : وهي ان العمل كلما ازداد توسعاً في الحجم وفي الشعب والتعقيد تغير وجه الادارة ، اذ تغدو مقتقرة الى اشياء اخرى متعددة ، بالإضافة

الى صفات العمل التكنيكية . انها تفتقر مثلاً الى التجارة لشراء المواد الاولية ، والى السياسة لان الدولة تفرض عليها الضرائب ، والى الدعاية والى النقابات المتعددة والى المعاملات الانسانية ، بين العامل ورئيسه . وهكذا يصبح للادارة طابع انساني اعلى ما دامت تعني قضية الانسان مع الاشياء وقضية الانسان مع اخيه خاصة ومع نفسه ، وما دامت تفرض على الذين يقومون بها ان يدركوا حساً النسبة بين الغاية التي يسعون اليها وبين الوسائل التي يستخدمونها ، كما تفرض عليهم ان يملكوا حساً الوقت ، وان يعرفوا كيف يكتفون العامل لحياة العمل ، لم يكن هذا العصر الاداري وقفاً على الصناعة . بل تعداها الى الدولة الحديثة التي تتبعت مثلاً في حروبها تطور الصناعة وثورتها . فاذا رجعنا الى العصور الاولى ، رأينا المعارك التي كانت تشن فردية تقوم على استعمال الخنجر او السيف . وفي العصر الميكانيكي نجد اشتراك الجيش كله في الحرب باستعماله المدفعية . وليس هناك ظاهرة ادل على هذا العصر الاداري في الحروب من الحرب العالمية الثانية ، التي تلقي اضواء على هذه الادارة البالغة في التنظيم .

وقد تدخلت الدولة في كل شيء ، حتى اننا لا نجد ظاهرة من ظواهر حياتنا الخاصة الا واجتاحتها . وهما هي اليوم تدير المعامل وتؤمن الصناعة وحياة العمال في الدولة القومية الاشتراكية . ولقد حدثت ثورة تطور الدولة الهائلة في اقل من نصف قرن . وكانت كالصناعة تتجمع في قوات تتضخم شيئاً فشيئاً بما تملكه في وسائل المال والبوايس لتؤدي الى انهيار ذلك الحاجز الذي كان يفصل بين حياة الانسان الخاصة وحياته العامة .

اما الحادث الاجتماعي الذي كان نتيجة للثورة في طرق العمل وفي الحكم فهو ان العمل ، سواء اكان خاصاً ام عاماً ، قد بعد في مفهومه عن الطاقة الانسانية ، اي انه لم يعد هناك من نسبة بين امكانيات الفرد ومقاييس العلم الجديد التي تتراوح بين السنوات « الضوئية » وبين الميكرون ، والتي لا يمكن لعقلنا ان يستسيغها ويكون عنها معنى دقيقاً . وفي المعمل ايضاً تغيرت المقاييس فلم يعد باستطاعة المدير ان يشرف على العمل في جميع تفاصيله ولم يعد هناك من احتكاك مباشر بينه وبين العمال .

وانه ل يبدو ان التأميم المركزي لوسائل الانتاج هو

اما اذا نظرنا الى السكرتاريا من الناحية الانسانية فاننا نرى ان الآلة تسمى الى ان تفقد المكتب انسانيته . فالذي يضربون على الآلة الكتابة يعرفون اكثر من غيرهم امام هذه الآلة الجامدة الى اي حد يفقدون انسانيته .

الى جانب عصر الادارة وعصر السكرتاريا تميز « العقلنة المنزلية Rolionalisation menagère القرن العشرين ايضاً . لقد تسربت الآلة الى المنزل وادت الى ثورة في تكوين فكرة السكن ثم تسلت الى حياتنا الخاصة . وقد بدأت هذه الثورة في اميركا اذ ضعفت اليد العاملة وارتفعت اجورها فلجأ الناس الى الآلة تلك التي تعد وسيلة كحالية بل حاجة ماسة من حاجات البلد والعصر . وبلغ الاهتمام بالمطبخ خاصة ذروته ، ثم شمل اثاث المنزل كله فأفقدته شيئاً كثيراً من طابعه الفردي ، وتغير مفهوم المنزل فاذا هو يفقد حرارته الحمية . لقد التصقت المنازل ببعضها وكثرت المنتديات والمطاعم المريحة فلم يعد البيت الوسط الاجتماعي المحصب ، واضعفت هذه التدابير دور المرأة . لقد غدت تهتم بأشياء اخرى غير المنزل واصبحت تتعاطى المهنة الحرة كالرجال ، وبات لديها اعتقاد راسخ بان لا تصرف حياتها كلها في تربية الاولاد . لقد ساعدت هذه الحياة الاجتماعية في الغرب على تحقيق رغبات المرأة - الأم في المدارس والمصانع التي تهيمء الطعام المعلب .

والاعلان من ام مميزات هذا القرن . فهو قد غدا حاجة ضرورية لهذا العصر ، لا في الانتاج وحسب ، بل في جميع مراحل حياة المجتمعات الراقية . ذلك ان الآلة يوم فرضت نفسها على الصناعة فرضت معها الانتاج بالجملة ، وبالتالي ضرورة وجود اكبر عدد ممكن من المستهلكين . وهذا يحتم انتشار الاعلان خاصة في النظام الديموقراطي الذي يقر مبدأ المنافسة . ان تلك المصاريف الصناعية تنفق اليوم على الاعلانات .

اما مهمة الاعلان فقد تكفي بالإشارة الى وجود انتاج ما فتبع في اسلوبها اذ ذاك اسلوب الاستاذ الذي يمرض بشيء من التجرد ، ولكنها لا تفتأ تكرر وتميد حتى تصبح عادة تسلسل بصمت الى عقل الانسان الباطني وتنطبع فيه ، فاذا ما راودته فكرة شراء صنف منها فقزت فجأة الى عالم الوعي فاحتلت منه تفكيراً وعناية .

ولكن الاعلان يعتمد غالباً على الاقتناع ، ومهمته مهمة المحاسبي اللبيق الذي يتنبع التطور المنطقي المقنع . وقد يلجأ الاعلان ايضاً الى تحريك غرائز المشتري وعواطفه ليبلغ الهدف الذي يقصد اليه فيكون حاله حال السياسي الداهية .

والاعلان بلا ريب فن من الفنون : انه يعتمد على الاناقة في التعبير ويتطلب انشاء رقيقاً ، فالجملة يجب ان تكون واضحة موجزة ومقنعة ، تلفت الأنظار وتستأثر بالمثل . من اجل هذا كله يحتاج الاعلان الى الجمال والخيال والطرافة المنبثقة من الانشاء والرسم والموسيقى والفن

الحدث الغالب في عصرنا ، فانه لم يبق هناك من عمل يتم دون مساهمة الجماعة . وبما لا شك فيه ان عصر الادارة هذا قد ادى الى فقدان التوازن بين الانسان ومحيطه ، مما يشكل خطراً على الفرد . فلقد فقد هذا الاخير ثقته بنفسه وبات لا يستطيع وحيداً ان يجابه المخاطر والازمات التي تحدق به . من اجل ذلك فهو يستسلم بين يدي الدولة التي تؤمن له العمل المعترف به كحق للفرد في معظم بلدان الغرب . ان الدولة تحمي الفرد ولكنها تهمسه وتفقدته حتى حريته الشخصية . وهنا تبرز سيطرة المجموع على الفرد ، وتبقى المعضلة الكبرى التي يجابهها العالم اليوم في كيفية صيانة الفرد ، هذا الخالق الوحيد ، وهذا الكائن الحي وحده .

هذا هو عصر الادارة ونتائجها في الصناعة والدولة وفي حرية الفرد . الا ان الادارة وحدها لا تكفي لتميز القرن العشرين . فهناك ميزة اخرى هي « دواوين الكتابة » Secretariat التي باتت تتقدم شيئاً فشيئاً كلما تقدمت الصناعة فلقد اجتازت بالتوالي عصر الكتابة اليدوية ثم عصر الميكانيك الى العصر الاداري . فالآلة اليوم تحمل على الادارة وتضائل دور الفرد شيئاً فشيئاً ولكن دون ان تعدمه . فن ام مستحدثات « السكرتارية » الآلة الكتابة و Typewrite و Stenographie و Stemotypie التي بلغت حداً هائلاً في السرعة والدقة ثم Magnétophone التي بواسطتها يمد الرئيس مضطراً الى ان يبلي على مساعده ولكنه ينقل ما يريد الى الآلة القادرة على ضبط الكلمات بسرعة في كل ساعة في ساعات الليل والنهار . وهناك ايضاً Dictophone الذي يستعمل في تسجيل المحاضرات و Phototypie و Microfilm هاتان الآلاتان اللتان قلبتا الطريقة في النقل وقضتا على جماعة القلم . انا هنا في دنيا الآلة ، في دنيا المعجائب .. ولهذا المعجائب فائدة ، واية فائدة : انها اختصار العمال ، وانها السرعة الفائقة في تيسير الاعمال ، وانها العمل المتقن الدقيق . على ان هذا التقدم الميكانيكي الهائل يشكل خطراً على الثقافة . فالكتاب الذي يستعيز بالآلة عن قلبه لا يمكنه ان يفكر بدقة وبعمق كالذي يخلق على الورق بقله .

لكن لا بد للسكرتاريا من اساليب تتبعها وهي قد اصبحت في حقيقتها ادارة مستقلة . انها تسمى ما استطاعت الى ان تستعيز بالآلة عن اليد العاملة ، وقد يؤدي هذا الى المخاطر نفسها التي ادت اليها الصناعة : لقد خفت اليد العاملة واصبح العمال جماعة من المتخصصين مدعويين الى اداء عمل مخلص اكثر منه مفكراً واعياً متضمناً للهداية

ولكن يمكننا ان نرى في السكرتاريا عملاً آلياً وحسب ؟ ان السكرتير اليوم هو المسؤول عن عمل الآلة نفسها . انه مدعو ابدأ الى ان يؤدي احصاء مدققاً ، وعليه إذ ذاك ان لا يمرض وحسب ولكن ان يرتب ويضيف وهذا يتطلب مجهوداً فكرياً غير يسير . كذلك تقسم الاعمال في السكرتاريا الى من ينفذ العمل ، فيكون عمله آلياً او هو عمل الآلة نفسها ، والى من يهيء ، والتبينة تتطلب الطرق المنظمة والاطلاعات العلمية الكافية والانشاء الرفيع والثقافة العميقة والحس المرهف . ثم ان على السكرتير العام ان يفرض شخصيته قبل كل شيء

هكذا يخضع الاعلان الى مبدأ الأنضمام الجماعي : انه يحتاج الى فنانين من مصورين وكتاب وموسيقيين والى علماء النفس والفنانين التكنيكيين . وهناك اعلان ديني جديد يقوم في اميركا ويتبع اساليب الدعاية التجارية .

فلقد اتبع Welsey اسلوب السيطرة على العواطف الفريزية كما اتبع Bucton اسلوب الاقناع في دعوته الاخلاقية . ولقد انشأ Billy Graham جمعية ترمي الى اقناع الجماعات . انها تتألف من ٧٠٠,٠٠٠ شخص ويزيد صندوقها على المليون دولار . اذا فكل اعلان في هذا المصراعى الدعاية الدينية تعتمد على الكثرة . لقد عرف العالم الاعلان منذ المسيحية الاولى ولكن الاعلان كمهنة ، ميزة من ابرز مزايا هذا العصر .

اما الاعلان من الناحية الانسانية فهو يطرح مسألة كانت خطيرة في اول الامر واختلفت فيها الآراء : هل يتألف الاعلان ومبادئه الاخلاق؟ على ان القضية في حقيقةها لا صلة لها بالاخلاق ، وانما تتمتع على المصلحة . فالاعلان عن الاشياء السيئة لا يلبث ان ينكشف . ان الاعلان يكون اخلاقياً يوم يكون مفيداً وان لم تنقصه البراعة والفن .

ومن اهم مظاهر هذا العصر . السياحة المنظمة المعتمدة على الكثرة . انها بنت السرعة والديمقراطية التي اندست في التطور الصناعي ، واتبع تطور المجتمع نفسه .

ففي العهد القديم كانت السياحة وفقاً على الطبقة الارستقراطية الفنية التي تسعى الى بلاد قريبة تشد الراحة والهدوء في ربوعها .

اما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فلم تعد السياحة وفقاً على الطبقة الارستقراطية وحدها ، بل شملت بعض الطبقات المتوسطة . واما السياحة الحديثة فانها تشكل ثورة . فالطبقات الفنية اصحت تبغي من السياحة لا الراحة والهدوء بل اللذة حتى الاسراف . ولهذا الغاية كثرت الفنادق والملاهي ولكنها تفقد على الانسان من متعها بقدر ما يفقد عليها من اموال . وقد شملت هذه السياحة الطبقات الشعبية التي تتوق الى السفر دون ان ترهق نفسها . لقد كانت هذه الظاهرة الجديدة نتيجة للثورة الصناعية اذ اصبح الموظف او العامل يتمتع بعطلة سنوية ينشأ اثناءها الراحة ويتقاضى اجره . كما انخفضت اجور التنقلات اذ اصحت تنقل كمية كبيرة وتأمينت الفنادق المتوسطة . ولربما قامت مؤسسة وتحملت بنفسها تأمين السفر والاقامة مقابل مبلغ يفر ويفري .

اما ثورة السرعة فقد بدأت منذ عرف العالم محرك البنزين واتسعت بانتشار الطائرات فاشتمد معها هوس الانسان بان يسرع ويسرع ما استطاع حتى تضمحل امامه المسافات . وان حياة الانسان لتبدو اليوم طويلة لما يقوم به من اعمال جملة بحيث اصحت تقاس بالساعات بل بالدقائق والثواني .

وكثرت السيارات واصبحت حياة الانسان محفوفة بالمخاطر لكن الحياة تنظمت ، وتوسعت المراكز المدنية واجتاحت القرى وتعددت السكان ، فاذا المسافات تضيق واذا بناطحات

السحاب تنتشر في الولايات المتحدة وسواها من العواصم الكبرى . واذا بمشكلة العصر الجديد تكمن في توسيع الطرقات وتأمين السير وفقاً لمتطلبات الحياة الجديدة . ولقد كان في انتشار السيارات الخصوصية ظاهرة لا يمكن تجاهلها ، فكان الفرد في هذا الانتشار يعاود حقه المهضوم المنعكس في الجماعة .

لقد غيرت السرعة الحياة وغيرت معها الانسان ، فلم يعد المقياس الوحيد للاشياء كما كان من قبل ، ولم يعد هناك من تناغم بين حياته والعالم الذي يتخبط فيه . ولقد استطاع المهندس ان يحل كل قضية تتعلق بالسرعة وعجزت السياسة لأنها تتعامل مع الانسان لا مع الاشياء .

تبع عصر السرعة ازمة في القارات كانت هي ايضاً نتيجة للثورة الصناعية . ان الجنس الابيض يفرض وجوده في كل صقع بالآلة مسجلاً للقرب اسبقية التقدم على الشرق بما يزيد على القرن .

في القرن التاسع عشر كانت اوروبا محط انظار العالم الصناعي وكانت تشتري من البلاد المتأخرة موادها الاولية ثم تبنيها بعد ان تمر في معاملها وخاصة في معامل بريطانيا او تحت امرتها . وكان اطار التبادل يشمل العالم كله .

وفي انيار هذا المبدأ تكمن ازمة القرن العشرين ، اذ اسقطت حضارات قديمة كانت قد طمست ، فهت تطالب بحريتها وباستقلالها وبحقوق استئثار اراضيها . على ان الاشعاع الاوروبي ، مها كان امره ، لا يمنع ان يكون قد ادى للعالم فضلاً كبيراً بواسطة الآلة التي رقت شموها كثيرة واتاحت لهم ان يملكوها وان ينشئوا في بلادهم على غرارها . ومن اهم الاسباب التي دعت الى نشوء هذه الازمة ان الحربين العالميتين الاولى والثانية قد أفقدتا اوروبا سيطرتها الصناعية على العالم ، وتشعبت صناعات متعددة في مختلف الاقطار واستلمت لمرّة الصناعة دولتان قويتان : اميركا الشمالية وروسيا . فادى ذلك الى بعث حضارة جديدة تختلف عن الحضارة الاوروبية الجديدة وادى ذلك ايضاً الى وجود جغرافيا جديدة . فنذ اللحظة التي استطاع الانسان فيها ان يغير وضعه ، تغير وجه الارض . ومن يدري ، فلعلنا نتأهب لاجتياز عصر جيولوجي جديد . ففي هذا العصر بالذات اكتشفت افريقيا الاستوائية ووطئت ارض القطبين الشمالي والجنوبي اقدام المتمدنين . وان لهذا العصر نفسه افضلية تحقيق وجود « المجرة » Galaxie ، وادراك سعة هذا العالم وامتداده المستمر . وحتى وسائل المقياس قد تبدلت ولم تعد اوروبا وسط العالم كما كانت من قبل ، ولم يعد هناك من معضلة سياسية تقض ضمن الاطار القومي بل تفرض معالجتها على صعيد عالمي .

وتعدل ايضاً الوضع الجغرافي ، ففي الوقت الذي كانت فيه الصناعة تعتمد على الفحم الحجري لتحريك الآلة البخارية كانت البلاد الفنية تلك التي تكتنز في اجوافها هذه المواد ، وكانت محط انظار العالم المتمدن .

اما اليوم فقد تبدل الوضع مع البترول والكهرباء فسبل وجود المصانع في اي مكان كما ان مشروع تحقيق استئثار القوة الذرية والقوة الشمسية هو اليوم في طريقه الى قلب الحارطة الصناعية ، وبالتالي انتشار الانسان على

الارض . وانه لمن الخطأ الفادح ان نعتد اليوم على مفاهيمه قاييسنا القديمة ، فتلك الصفحة القديمة يجب ان تطوى .. ان الارض مستديرة وجميع الخطوط فيها منحنية وليس العالم عالم اقليدس بل هو اكثر تجاوبا مع الهندسة اللوئيشفسكية ١ والهندسة « الريامانية » ٢ . ويجب ان نتاد منذ اليوم فنقر بعدم وجود الخطوط المتوازية ونقر بان الخطوط المامودية الهابطة على خط واحد مستقيم يمكنها ان تلتقي . ولقد ادت هذه الحقيقة العملية الى اكتشاف طرق مختلفة . فنذاستعمال الطائرات اصبح للقطين وجود في افقنا المادي بعد ان كان حلماً يصبو اليه المستكشف الجريء . وكانت المحاور في الماضي تنجه ناحية الشرق - الغرب عرضاً واما اليوم فهي تميل الى اتجاه الشمال - الجنوب وهذا ما يجلنا على القول باننا في عصر « المواجر » Méridiens فالطرق المباشرة لا بد لها ان تمر في القطبين ، ولقد بدأت المنايات تبدل حولها مما جعل القسم الشمالي من كندا يعتبر مركزاً استراتيجياً كبيراً كان محبباً لآ حتى اليوم . ان الولايات المتحدة ، ان هي شعرت بنفسها مهددة - وهو افتراض غير محتمل الوقوع اليوم - فانها تنتظر الهجوم من الشمال لا من الشرق او الغرب . واصبح لفرنولندا والاسكا من الأهمية ما كان « للارض الجديدة » خلال الحرب العالمية . ان العالم يتبدل امامنا بسرعة جنونية . فنحن نعلم ذلك تمام العلم ونلاحظه : عقلنا يصدقه بسرعة واحساساتنا تأبأه لأول وهلة . وهنا ، وهنا بالذات ، تكمن ازمة قرننا العشرين . اننا مدعوون الى ان نؤمن بمولد عالم جديد لا تزال مجال اسمه .

ومن مظاهر القرن العشرين ايضاً ظاهرة « المثل الاصيلي » المدعو ابدأ الى ان يعيد نفسه Prototype . ان الإنتاج الجديد ، الإنتاج بالجملة اصبح آلياً بطبيعته ، يقدم لمستهلكين مجهولين ، واصبح مبنياً بنوع خاص على التكرار . فالجملة اذن تناقض كل فكرة للطرافة في الأشياء وبالتالي فوجودها متوقف بالدرجة الأولى على اعادةها والاكتثار منها . ولا بد لنا من التساؤل عن قيمة النسخ الحديث Reproduction والى اي حد يمكن ان يعتبر كلام الشخص المتكلم مثلاً في الأذاعة او غيرها واقعياً . لا ريب في انه نوع من الخداع يوهنا اننا نسمع الشخص نفسه . واذ ذلك يعدو الإنسان الحي المتكلم مثلاً اصلياً مدعواً الى ان يكرر نفسه دون ان يظهر بشخصه .

على ان للنسخ فضلاً كبيراً . فلقد اتاح لكثير من الناس ان يسمعوا وان يملكوا لوحات كانت بالأمس من خصائص فئة معينة في المجتمع . غير ان النسخ يظل نسخاً ، بالرغم من كل شيء .

واذا نظرنا الآن الى النسخ من حيث الكمية والانتشار بدت لنا هذه الكمية عجيبة بنتائجها وبتقدمها الاجتماعي . اما اذا نظرنا اليه من حيث النوع ظهرت لنا تلك الهوة الساحقة بين رؤية الشخص بالذات ومشاهدته على الشاشة : ليس هناك

١ نسبة الى صاحبها « لوباشنسكي » الروسي الذي عارض النظرية الاقليدية
٢ نسبة الى صاحبها « ريامان » الالمانى صاحب « القاموس الموسيقي »

من احتكاك مباشر بين المتكلم والمشاهد ، وليس لالتقاء النظرات سطوتها السحرية ، وليس هناك من حرارة ورعشة ، تربط بين المستمع وجمهوره . انها تقضي على هذا الشيء الذي لا يجد والذي يكمن في الحضور الأنساني .

نستنتج من ذلك ان الجملة لا تلعب دوراً من الناحية الفنية لأن الفن يفرض الشيء الفريد والظريف . فالآلة اذاً تقضي على كل مفهوم للفن .

لم تنسرب الآلة الى الفن وحسب ، وانما غدت خطراً محققاً بالفكر الذي اصبح مدعواً الى ان يفكر آلياً ويعمل آلياً . هذا من جهة . اما من جهة اخرى ، فلقد اصبحت الفكرة شيئاً يباع ويشترى يوم اصبحت تعتمد على الإعلان وعلى الكثرة في الانتشار وعلى التجارة . وهنا الخطر ، اكبر الخطر ، ان اصبحت الفكرة ، هذا الشيء المجرى سلعة تباع ..

ان على الفنان ان يكون متجرداً قبل كل شيء . ولكن الذي يلقي على عاتقه بان يقوم بتقديم الكتاب وبنشره لا يمكن ان يهمل رغبة الجمهور ، واذ ذلك تتدخل اساليب التجارة ومصطلحاتها . ولقد دخلت التجارة روح العمل الفكري نفسه فاصبحت دور النشر تقذف بين يوم وآخر كتباً لا تبغي منها بارضاء الجمهور ، الا الاستفادة .

وهناك ظاهرة بدأت تفرض استعمالها وكادت تعم : ان هناك عدداً غير قليل من الناشرين يقومون بانفسهم باعادة قراءة مخطوطات المؤلف وبواسطة اتفاق يجري بين الفريقين يعبث بالمخطوط كأنه مادة اولية فتضاف اليه اشياء وت حذف اخرى . هذه الطريقة التي تكاد تعم اليوم بصورة طبيعية تنافي الى

ابعد حدودها مفهومنا التقليدي عن حرية الفكر التي تفرض وجود الشخصية المستقلة في العمل ، لا الاسلوب العادي الذي يقتدر الى وجود طابع يميز صاحبه . ففي اميركا مثلاً تكاد السهولة في العبارة والسهولة في عرض الأفكار وفي اشاعة البهجة في الكتابة تثير الدهشة والعجب . وخير مثال على ذلك مجلة « ريدرز دايجست » . ان الشكل يكاد لا يتغير ، ولذلك لا بد للمل من ان يتسرب الى القاريء فيتعبه ويكهر به . وليس لهذه الطريقة من خطر من الناحية الاجتماعية لقد سهل كل شيء بواسطة الآلة ، ويجب ان تسهل ايضاً طريقة التعبير وتعم طبقات المجتمع . لكن الخطر يكمن في ان طرافة العمل الفني قد قضى عليها ، وان التكنيك بات محل الثقافة وغدت الوسيلة الهدف بالذات .

ان تقدم التكنيك الهائل هو اليوم من اهم عناصر المجتمعات الغربية ، فلقد تطورت تلك الحضارة القديمة اليونانية او الأوروبية المبنية على ثقافات لم تطغ عليها فكرة التكنيك ، والتي تكاد تنحصر في نظريات المعرفة ونظريات الفرد . تطورت هذه الثقافة وحلت محلها الحضارة التكنيكية فاصبحت تسخر لنفسها نظريات الثقافة القديمة نفسها . وهنا تكمن المعضلة الكبرى : ترى ، هل هناك من امكانية يتآلف فيها مفهوم الحضارتين ويتنازع ؟

لا بد لنا من ان نقيم تحديداً واضحاً لمفهوم التكنيك ومفهوم الثقافة للرد على هذا . السؤال . فالتكنيك مجموعة من القواعد المبنية على العقل تؤيدها التجربة والاستعمال العام ، والتكنيك يلقت ويمتلك وهو قابل للتحسن ويعطي نتيجة مرضية كاملة كنتيجة العمل الحسابي ، تكون حداً له لا يمكن ان تتجاوزه . والتكنيك الصناعي هو الذي يحتل اليوم المكان الاول وهو بنوع خاص تكنيك مادي . فان نظرية العلم للعلم باتت غير معقولة ، ولم يعد العالم يهمل ناحية التطبيق العلمي ، وهذا يتقدم الغرب ، في حين يظل الشرق متأخراً .

ولا يسمح لاحد بأن يغمط فضل التكنيك في دنيا المجتمع . غير ان للثقافة مفهوماً مختلفاً عن مفهوم التكنيك . انها شخصية قبل كل شيء ، وهي تعني هضم الاشياء المبعثرة وتوحيدها في تكوين الشخصية . ولا بد للثقافة من عوامل تساعد على نشأتها ورسوخها اهمها الفراغ وتجرد الفكر من المشاكل المادية والانصراف بعض الشيء الى التأمل دون اهمال الانسان لواقع محيطه وبلاده وحضارته والانسانية . والرجل المثقف هو غير الرجل المتخصص ، وليس من الضروري ان يكون اكثر الرجال علماً . انه هذا الذي يسعى لان يقيم صلة بينه وبين الاشياء التي ترتبط به . وهذا كله يعطى ولا يلقن . غير ان الهضم يظل امراً شخصياً بالرغم من كل شيء ، وهو يتم حين يحتك الانسان نفسه ، عن طريق الكتب ، بالثقافات القديمة ، ويقف على اسرار الانسان في مختلف اطوار حياته . ولا ريب ان افضل ثقافة يمكن ان يملكها هي التي تنشأ في حياته هو . اذا فان حضارتنا اليوم تؤدي الى افساد مفهوم العلم والتكنيك الحقيقي . فالثورة الصناعية ساعدت على رفع مستوى حياة الانسان الاجتماعية ، في الوقت الذي ظلت فيه المجتمعات التي لا تلحق بركب هذه الثورة فقيرة معـدنة

لا تملك ان تدفع خطر الجوع المحقق بها . وعلى ذلك فان التكنيك هو الذي قام بهذا التطور الهائل فعدا بمفهومه الحديث صنو العلم والثقافة . ففي روسيا مثلاً اصبح التكنيك هو الثقافة نفسها ، ولئن كان الامر في الولايات المتحدة ليس على هذا القدر من المبالغة ، فالجميع يعرفون ان كل الامتيازات تعطى للتطبيق . اما المفهوم الحق الذي يجب ان نؤمن به فهو ان العلم فضول للمعرفة واما التكنيك فوسيلة ، واما الثقافة فوقف تجاه العلم والتكنيك . فالخطر كل الخطر نشأ يوم دمج التكنيك في مفهومه مفهوم العلم والثقافة فاصبحت الوسيلة غاية .

والثقافة على تجردها ، مفيدة . فالتقدم بحاجة ماسة اليها شأنها في ذلك شأن الطبيعة التي تعتمد على تجرد الثقافة لتؤمن لنفسها البقاء . ان العلم لا يمكن ان يكون خلافاً الا حين يتجرد . فاللاكتشافات الهائلة التي قلبت وضع العالم والانتاج هي عمل علماء تجردوا من كل شيء الا من فضولهم وحبهم للعلم . والحضارة التي لا تعتمد على الثقافة تنتهي بالعدم ، ولا يمكن للتكنيك المبني على المعلومات العملية وحدها ان يضمن لنفسه البقاء طويلاً . كذلك ينبغي الا نستسلم لثقافة لا تهتم بالجسد وتكتفي بالعزلة المجردة والتأمل الذاتي .

والحق انه ليس للثقافة من ميدان خاص ؛ فهي لا تعطى كتلة واحدة وانما تعلم بالاحتكاك بالاحداث سواء منها ما يتعلق بالجغرافيا الاقتصادية او بالتاريخ او بالعلم ، ومن ثم يمكن لكل دراسة ان تحتل مظهراً من مظاهر الثقافة . وانما ينبغي لذلك التوضع في الحالة الفكرية الضرورية .

واذاً فان الثقافة الرفيعة هي منبع حضارتنا . فاذا اتجه هذه الحضارة ، في تطورها الاعظم ، ان تستغني عنها ، او على الاقل ان تخضعها لحاجات التطبيق الصناعية العليا ، فان ذلك سيضع في خطر شخصية الحضارة الاوربية الموروثة كما سلمها القرن التاسع عشر الى اميركا وروسيا .

فهل ترى سينبعث من اشكال التكنيك المتطورة ، في عالم يسير بعد الآن تحت ظل الآلة والجملة والكتلة ، شكل ثقافة جديدة ؟ ان هذا ممكن ، ولكن صفحة آنداك ستطوى من كتاب تاريخ الحضارات وتصبح الحضارة اليونانية اللاتينية الموروثة التي يقوم عليها مفهومنا للفرد من مخلفات الماضي .

ترجمة وتلخيص

عائدة مطرجي